الموروث الديني في شعر ابن هانئ الأندلسي

م.منير عبيد نجم
جامعة بابل /كلية التربية الأساسية

التمهيد

نظرة في حياة الشاعر ابن هانئ الأندلسي

نشأته وثقافته : -

هو أبو القاسم محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون الاسدي ، ولد في قرية سكون من ضواحي أشبيلية عام ٣٢٠ هـ . (١) من أسرة ذات مجد وأدب وعلم يتصل نسبها بسلالة المهلب ابن أبي صفرة الاسدي القائد الإسلامي المشهور في دولة بني أمية (٢) ثم انتقل مع أسرته الى البيرة (قرب غرناطة) لذلك أصبح يعرف باسم ابن هانئ الالبيري (٣) كان أبوه هانئ شاعراً وأديباً نشأ في قرى المهدية عاصمة الدولة الفاطمية الأولى في المغرب ثم هاجر من قريته إلى اشبيلية في الأندلس إذ ولد ابنه محمد فأخذ يشجعه على الارتواء من مناهل المعرفة والتزود من ينابيع الشعر والإكثار من نظمه (٤) نشأ ابن هانئ وترعرع في بيئة أشبيلية الحافلة بألوان الحضارة والفن والأدب واختلف الى مجاميع العلم والأدب يثقف نفسه ويهذب عقله ويكوّن ملكته تكويناً يصل بينه وبين الحياة بأسباب الطموح والأمل ثم رحل منها الى قرطبة التي كانت تزخر بالجامعات والعلماء وألوان الثقافة والحضارة يقول ابن الابار" اكثر تأدبه في دار العلم في قرطبة " (٥) , فعكف على تزويد نفسه وبناء ثقافته حتى صار شاعرا كبيرا ذا قريحة وقادة ومقدرة باهرة على قول الشعر والظاهران رحيله إليها في بدء حياته كان لهذا الغرض دون سواه (٦) اتصل في أول عهده - بعد ان أصبح شاعرا لايقل عن غيره من الشعراء الممتازين - بصاحب اشبيلية ومدحه وحظي عنده بمنزلة رفيعة ، غير ان غلوه في تشيعه وبغضه للأمويين وملوكهم منكراً لحقهم في الخلافة الإسلامية وإعتقاده إمامة الفاطميين يشيد بدعواهم ويذيع محامدهم ويؤيدهم بروحه وقلبه ولسانه جعل الاشبيليين ينتقمون عليه حتى هموا بقتله لما يمثله من خطر على نظامهم السياسي والاجتماعي ولم يكتفوا بذلك بل اخذوا يسيؤون المقالة في حق الملك بسببه (٧) فأشار عليه أمير اشبيلية بالخروج من المدينة لينسى خبره ، فامتثل الأمر وخرج من المدينة خائفاً يرتقب فلم يجد سوى (المهدية) موطن الدعوة الفاطمية ملاذاً آمناً يأوي إليها وكان ذلك في السنة السابعة والعشرين من عمره (٨) وقد كشف الشاعر فيما بعد عن سبب ابتعاده من الأندلس وعزا ذلك الى عقيدته الشيعية فقال بازدهاء (٩) :

وما نقعوا الاقدمين تشيعٍ فنجّى هزبراً شدّ ة المتدارك

استقر ابن هانئ في المغرب وأخذ ينتهز الفرص ليذيع شعره ويظهر شاعريته ثم دفعته همته وماضي أسرته العريق الى السير في طلب الشهرة والمجد وبدأ يتصل برجالات الدولة الفاطمية وهيأ له حسن الصدف اللقاء مع القائد جوهر عام ٣٤٧ هـ الذي فتح مصر وأخضعها للمعز الفاطمي (١٠) وقد بالغ ابن هانئ في مدحه ونظم قصيدة ذكر فيها هذا الفتح وأثره مجوهراً بطولته وحزمه ومجده الحربي وولائه للخليفة المعز وللمذهب الفاطمي يقول فيها (١١) :-

وابيض من سرّ الخلافة واضحٍ تجلى فكان الثمن في رونق الضحى
أريك به منهج الخلافةِ مهيعـــاً يبين واعلام الخلافـــــة وُضّـحا

فقربه وأكرمه وأمر له بهدية .

ولعل عطايا جوهر لم تكن تناسب آمال الشاعر وطموحاته وعزمه على الظهور فقد كان يسمع بعطايا الأمراء وجوائزهم الطائلة التي تقلب حياة الشعراء رأساً على عقب وتدعهم يعيشون حياة الترف والنعيم ففكر في عظيم آخر يعيش في ظلاله ويستقر في رعايته (١٢) .

فرحل إلى الزاب واتصل بجعفر بن علي الفاطمي وأخيه يحيى سنة ٣٤٩ هـ (١٣) .

لما سمع بجوده وأريحيته وتقريبه العلماء والشعراء فمدحه بقصيدة طويلة وصف فيها بطولاته وجهاده وآثاره السامية ومما قال فيها (١٤) :

خلقت شهاباً يضيئ الخطوب ولست شهاباً يضيئ الظلم
وأنكّ من معشـــــرٍ طفله يتوّ جُ قبل بلوغِ الحلـُــم

ثم يذكر فيها عسف الزمان به وتحالف الخطوب عليه مصوراً عفافه وهمته اللذين كانا سبب محنته يقول (١٥)

ادم اليك اعتواء الخطوب وصدف الحوادث فيما أدم
ومما اعان عليّ الزمــان عفاف يدي وعلو الهـــمم

تلقى الأمير ابن هانئ الأندلسي بالتقدير والعطف ودعاه الى الإقامة في كنفه ، فبدأ ابن هانئ حياة جديدة ملؤها الأمل والرخاء في ظلال جعفر وأخيه يحيى يقول في جعفر (١٦) :

قد كنت قبل نداك أزجي عارضاً فأشيم منه الزبرج المنجايا

وفي موضع آخر يتحدث عن نفسه وصنيع يحيى الفاطمي معه[١٧] :

وما زلت ترميني الليالي بنبلـها وارمي الليالي بالتجلد والصبر
وانجدني يحيى على كل حتادث وتوجني تاجاً من العز والفخر

عاش ابن هانئ في الزاب نحو عامين لم يكن همه فيها الا حضور مجلس الامير والاتصال برجالات الدولة والتمتع بنعيم الحياة وجمالها حتى صارت الزاب عنده جنة النعيم [١٨] :

أنما الزاب جنة لخليفها من نجاة نضارة التفويف

واشتهرت قصائد ابن هانئ الأندلسي في مدح جعفر وأسرته وتحدث بها الناس ورواها الأدباء والرواة وبلغ خبر الشاعر للخليفة المعز لدين الله الفاطمي فأرسل الى جعفر طالباً منه ابن هانئ وامتثل جعفر للأمر [١٩]

وفي عام ٣٥٠ هـ وصل ابن هانئ القيروان عاصمة الخلافة الفاطمية فسعى الى الخليفة المعز ومثل بين يديه وأنشده شعره وأصبح ابن هانئ في الحقبـــــة (٣٥٠ – ٣٦٢) هـ شاعر الخليفة[٢٠] فقد نظم في مدحه أكثر من ثلاثين قصيدة من أطول قصائده الفنية واروعها والتي تبلغ نصف تراثه الادبي وتسمى (المعزيات) على غرار ما عرف الكميت بالهاشميات وابي فراس الحمداني بالروميات[٢١] .لقد كان المعز الفاطمي على جانب عظيم من التفهم وبعد النظرة وكان من المثقفين ثقافة عالية وشاعراً رقيقاً واذا اضفت الى ذلك ما تحلى به من السجايا وخصال الزعامة ومنزلة روحية عند المذهب الاسماعيلي ادركنا سبب اعجاب ابن هانئ به ومديحه له حتى صار شاعر الدولة الأول الذي اوقف نفسه وفنه على الذياد عنها والإشادة بمجدها وشاعر العقيدة الفاطمية الذي تحدث عن مبادئها الروحية ومعتقداتها الدينية واحتل في دولة المعز الفاطمي مكاناً لم يحتله سواه من الشعراء وأصبح حديث الناس في محافلهم كما صار شعره أنشودة في كل فم وقد أغدق عليه المعز المال إغداقاً واتخذ له قصيراً بالقيروان وعاش حياة النعيم والرخاء[٢٢] .وفي أواخر شوال سنة ٣٦١ هـ انتقل المعز لدين الله إلى القاهرة فخرج ابن هانئ مشايعاً له ، ثم عاد وجاء بأهله وسار يريد القاهرة ولما كان في (برقة) وجد مقتولاً ٣٦٢ هـ ولم يتفق المؤخرون على سبب قتله وذهبوا في ذلك مذاهب شتى ولكن بعضهم يرى ان لبني أمية يداً في مقتله لأنه كان يقذعهم في هجائه ، وكيف كان الأمر فأنه مات ولم يتجاوز السادسة والثلاثين[٢٣] من عمره .

ولما بلغ المعز وهو في مصر خبر مقتله تأسف عليه كثيراً وقال لا حول ولا قوة الا بالله هذا الرجل من نرجو ان نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدَّر لنا ذلك [٢٤]

(خصائص شعره)

يدل شعر ابن هانئ الأندلسي على انه كان ملماً بعلوم عدة كعلم اللغة والفقه والكلام ولكن تخصصه كان في الادب وهو شاعر مكثر مجيد جعله معظم النقاد في مقدمة شعراء المغرب يقول ابن خلكان (ليس في المغاربة من هو في طبقته لا من متقدميهم ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق) [٢٥]

والمغاربة يقرنونه بالمتنبي ويسموه بمتنبي المغرب أو متنبي الغرب وهو ما ذكره ياقوت الحموي في معجمه قائلاً (ابن هانئ الأندلسي أديب شاعر مفلق اشعر المتقدمين والمتأخرين من المغاربة وهو عندهم كالمتنبي عند أهل الشرق)[٢٦] .

ونستطيع أن نقف على أبرز مميزات شعره

١- كان ابن هانئ يعنى باللفظ أكثر من عنايته بالمعنى فيعتمد الألفاظ الجزلة والفخمة ذات القعقعة ، وهذا ما جعل أبا العلاء المعري يقول حين سمع شعره " ما أشبهه الا برحى تطحن قروناً " [٢٧] لأجل القعقعة في ألفاظه . أما معانيه فكانت سهلة واضحة المنال بعيدة عن الغموض والتعقيد .

٢- ينزع في معظم شعره الى روح البداوة التي تأثر بها في ما قرأ من شعر الجاهليين والإسلاميين فهو لا يمثل ترف المحدثين ولهوهم وخيالهم الفني وإنما ينهج منهج الجاهليين في قوة الطبع وفخامة الأسلوب وإشراق الديباجة .

٣- غلب على شعره الحجاج والجدل والتعليل المنطقي بما عرف عنه من قوة واندفاع إذ كان يعتنق المذهب الاسماعيلي ويحمل آراءه وأفكاره حتى كثر في شعره ذكر المآثر والمناقب الفاطمية .

هوامش التمهيد

١- ينظر وفيات الاعيان لابن خلكان : ٣ / ٥ ، ينظر نفح الطيب للمقري : ٢ / ٢٦٤ ، ينظر موسوعة شعراء الاندلس عبد الحكيم الوائلي : ٣٣٣ ، ينظر شعراء العصر الاندلسي محمد العريس : ٤٠١
٢- ينظر تاريخ الادب العربي د . عمر فروخ : ٤ / ٢٦٦
٣- ينظر المغرب في حلى المغرب لأبن سعيد المغربي : ٢ / ٩٧
٤- ينظر موسوعة شعراء العصر الاندلسي محمد العريس ٤٠١
٥- الديوان : ٥
٦- ينظر الادب الاندلسي التطور والتجديد د . محمد عبد المنعم الخفاجي : ٤٠١
٧- ينظر ملامح الشعر الاندلسي د . عمر الدقاق : ٨٠
٨- ينظر الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة د . أحمد هيكل : ٢٣٣
٩- ينظر ملامح الشعر الاندلسي د . عمر الدقاق : ٨٢
١٠- ينظر الادب الاندلسي التطور والتجديد د. محمد عبد المنعم الخفاجي : ٤٢٩
١١- الديوان : ٧٦
١٢- ينظر الادب الاندلسي التطور والتجديد د. محمد عبد المنعم الخفاجي : ٤٢٩
١٣- ينظر تاريخ الادب العربي – عصر الدول والامارات / مصر د. شوقي ضيف : ٢٤٣
١٤- الديوان : ٣٢٩
١٥- المصدر نفسه : ٣٣٥
١٦- المصدر نفسه : ٧٢
١٧- المصدر نفسه : ٨٢
١٨- المصدر نفسه : ٩٢
١٩- ينظر الادب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة د. أحمد هيكل : ٢٣٤
٢٠- ينظر إبن هانئ الاندلسي عارف تامر : ٢٧
٢١- ينظر المصدر نفسه : ٢٨
٢٢- ينظر ملامح الشعر الاندلسي د. عمر الدقاق : ٨٦
٢٣- ينظر الديوان : ٦
٢٤- ينظر تاريخ الادب العربي د. عمر فروخ : ٤/ ٢٦٧
٢٥- ينظر وفيات الاعيان لابن خلكان : ٥/٣
٢٦- معجم الادباء ياقوت الحموي : ٩٣/١٩
٢٧- الديوان : ٧

المبحث الأول /أثر القرآن الكريم في شعر ابن هانئ الأندلسي

توطئة :: القرآن الكريم كلام الله الذي ترفّع وتجلى عن كلام البشر فهو " إن أوجز كان كافياً وإن أكثر كان مذكراً وأن أومئ كان مقنعاً " [١] إذ حوت لغته كل صفات الجمال والتأثير وطغى أشعاعه النفسي والعقلي والفني على كل أساليب التعبير [٢] فأضحت الفاظه ناطقة وموحية . وكان ابن هانئ أحد الشعراء الأندلسيين الذين استلهموا من نبع القرآن الكريم إذ تنفس شعره بالعطر الإلهي وانطبعت آثاره وبصماته على معظم أغراضه الشعرية ، فبات الشاعر يتنقل بين رياض القرآن الكريم الرحبة متأثراً بنماذجه الفنية – لغة وتركيباً وذوقاً – ولعل الثقافة الدينية الواسعة التي ألم بها ابن هانئ الأندلسي في شبابه حين درس القرآن الكريم وعلومه وأجاد في حفظه مما نفعه في مستقبله الأدبي [٣] إذ صبغ أسلوبه بصبغة القرآن الكريم اللغوية حتى كان فيما يعدالمجيد في الاقتباس من الذكر الحكيم .لقد استلهم ابن هانئ الأندلسي النص القرآني وعمل على توظيفه في داخل المتن الشعري بما يتناسب وموضوع قصيدته ، فقد جاء استلهامه للنص القرآني على مستويات ثلاث :

أولاً : المستوى الأول

المحافظة على الشكل البنائي (دلالة وتعبيراً) للنص القرآني فكان نقلاً حرفياً إذ لازمت البنية القرآنية الداخلة في النص الشعري على دلالتها دون أيّما تغيير كقوله [٤]

فلا تسألاني عن زماني الذي خلا ... فوالعصر اني قبل يحيى لفي خسر
فيا ابن علي اما مدحتكَ جاهلاً ... فأنك لم تعدل بشفعٍ ولا وترِ

وهي صورة استلهمت معطياتها من قوله تعالى [٥] {والعصر إن الإنسان لفي خسرٍ }
وقوله تعالى [٦] { والفجرِ ۞ وليالٍ عشرٍ ۞ والشفعِ والوترِ } وليس ثمة مبرر لهذا الغلو في تقديس الممدوح إلا المنفعة في القربى منه وانتهاز المواقف ، فلا بد ان يتميز الشاعر في اداته وابتكاره في صيغته ليتقدم على غيره من الشعراء مستثمراً معطيات الآيتين الكريمتين للوصول الى مبتغاه .
وقوله لأمير الزاب [٧]

لعمري لقد أُيدتَ يوم الوغى به ... كما أُيدت كفاكَ بالانملِ العشرِ
كذلك ناجى الله موسى نبيه ... فنادى أن شرح ما يضيقُ به صدري

وهي صورة مستقاة من قوله تعالى [٨] {قالَ ربِّ أشرح لي صدري ۞ ويسر لي أمري ۞ وأحلل عقدةً من لساني ۞ يفقهوا قولي ۞ وأجعل لي وزيراً من أهلي ۞ هارون أخي ۞ أشدُد بهِ أزري }

فكانت هذه الصورة بمثابة الخلفية لتلك الصورة ، وكما أن موسى (ع) ناجى ربه أن يجعل أخاه هارون وزيراً يعاضده ويناصره في دعواه كذلك اتخذ أمير الزاب من جوهر الفاطمي سنداً له يكفيه اعداءه في ساحة القتال .

وقوله [٩]

ولك الجـواري المنشآتُ مواخراً ... تجري بأمركَ والرياحُ رخـاءُ
والحـاملاتِ وكـلها محمولةٌ ... والنـاجـياتُ وكلـها عذراءُ
والاعـوجيات التي إن سُوبقت ... سبقتَ وجريُ المذكياتِ غلاءُ
الطائرات السابحـات السّابقا ... ت الناجيات إذا أستُحثَ نجـاءُ
أعززتَ دين الله يـابنَ نبيّـهِ ... فـاليومَ فيهِ تخمُطٌ وإباءُ
فعنت لك الابصار وانقادت لك ... الاقدارُ وأستحبت لك الانـواءُ
يفديكَ شهرُ صِيامنا وقِـيامنا ... ثم الشُّهـورُ لهُ بذاك فـداءُ
فيهِ تنزّلَ كلُ وحـيٍ مـُنزلٍ ... فلأهلِ بيت الوحي فيهِ ثنـاءُ

إن قراءة سريعة لهذه الأبيات توضح لنا كثرة اعتماد ابن هانئ الأندلسي للأخذ من القرآن الكريم والاقتباس من آياته وصوره بصورة مباشرة فقوله (ولك الجواري المنشآت الى قوله الطائرات السابحات) تعطي انطباعا أكيداً على الاعتماد على ماجاء في الذكر الحكيم من سورة الرحمن [١٠] {ولهُ الجوارِ المنشأت في البحر كالاعلامِ } وقوله تعالى [١١] {فالسابقاتِ سبقاً } ليؤلف منها صورة شعرية تزخر بجو إيماني التأثير . وفي صورة أخرى يتأثر ابن هانئ بما كان يشعر به النبي داود (ع) من الذنب والرغبة الصادقة في طلب التوبة والمغفرة موظفاً قوله تعالى [١٢] { وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ۞ إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فأحكم بيننا بالحقِ ولا تشطط وإهدنا سواء الصِّراط ۞ إن هذا أخي لهُ تسعٌ وتسعونَ نعجةً ولي نعجةٌ واحدةٌ فقالَ إكفلنيها وعزني في الخطاب ۞ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وأن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هم وظن داود إنما فتناه فأستغفرَ ربَّه وخرَّ راكعاً وأناب ۞ فغفرنا له ذلك وأنَّ له عندنا لزلفى وحسن مآب}

ويجعل من هذه السورة القرآنية معادلاً موضوعياً لموقفه أمام جعفر بن علي فبعد أن يصفه بالكرم والشجاعة والمقدرة على تسيير الأمور مما جعل الإمام الفاطمي يسد به الثغور مثلما استعان النبي (صلى الله عليه واله) بالأنصار ليهزم الأحزاب المجتمعة في معركة الخندق والأنصار يمانيون والممدوح من ملوكهم ، وان الشاعر قد أذنب – دون قصد – في إرجاع نسبه الى غيرهم ، مثله مثل داود عليه السلام في هذا الموقف ، ولائموه مثل الخصمين الذين تسورا المحراب عليه وها هو تائب أسوة بتوبة داود (ع) قال [١٣] :

سَدَّ الأمام بكَ الثغـورَ وقبلـهُ ... هزمَ النبيُ بقومكَ الاحـزابـا
أنتم ذوو التيجانِ من يمـنٍ اذا ... عُدَّ الشريفُ أرومةً ونصـابا
هبني كذي المحراب فيك ولوّمي ... كالخصمِ حينَ تسوّروا المحرابا
فأنا المنيبُ وفيه أعـظمَ أسوةٍ ... قد خرَّ قـبلي راكـعاً وأنابا

ولقصة نبي الله سليمان بن داود (ع) وافتتانه بعرض الخيول الضامرة السريعة حتى غربت الشمس وغفل عن الصلاة في قوله تعالى [١٤] { ووهبنا لداود سليمانَ نعمَ العبدُ إنه أواب ۞ إذ عُرض عليه بالعشيِّ الصافنات الجيادُ ۞ فقال إني أحببتُ حبَّ الخيرِ عن ذكرِ ربي حتى توارت بالحجابِ ۞ رُدُّوها عليَّ فطفقَ مسحاً بالسُّوقِ والاعناقِ } استحضارٌ في مدح الشاعر للمعز الفاطمي فيذكر ركوبه في بعض الأعياد إذ يصف الخيل ذات الحوافر المخضبة بالدم الأحمر مما وطئته في جماجم الأعداء المفلقة بأنها تمزق في جريها - لتحقيق النصر – أسهماً على الخارجين على الدين والممدوح قد اختارهن لحب سليمان (ع) للضمر الأصيلات منهن ولكنه لو رأى ما رأى الممدوح منهن في هذه الواقعة حين تتوارى الشمس خلف حجاب الظلام لم يقل ردُّوها عليَّ ولا يضرب سوقها وأعناقها إذ يقول [١٥] :

وتـراها حُمر السنابكِ ممـا ... وطئت في الجـماجمِ الافلاقِ
اللواتي مرقنَ من اضلُعِ النص ... رِ أسهـماً على المـُرّاقِ
أنت أصطفيتهنَّ حُـبَ سليما ... ن قديماً للصافناتِ العـتاقِ
لـو رأى ما رأيتَ منّها الى أن ... تتوارى شمسٌ بسجفِ الغساقِ
لم يقـل ردُّوها عليَّ ولا يط ... فقُ مسحاً بالسُّوقِ والاعنـاقِ

فاستلهمت هذه الصورة معطياتها من تلك الآية القرآنية .

وهكذا نجد أن الشاعر قد أستطاع عبر هذا المستوى من نقل جوهر الحدث القرآني في الصورة القرآنية بجزئياته الى ساحته الشعرية فنتج عن ذلك علاقة تربط السورة القرآنية بما يريد الشاعر التعبير عن دون أن يتدخل في هذا النقل سوى الربط بينهما ببعض الروابط اللغوية .

ثانياً : المستوى الثاني ::عمد فيه ابن هانئ الأندلسي الى تكنيك آخر عبر اتكاء النص الشعري على النص القرآني من غير المحافظة على البنية التعبيرية القرآنية فيتواصل النصان ويذوب أحدهما بالآخر دون ان تختفي المعالم الدلالية للنص القرآني ، ويتطلب ذلك القيام بعملية تحويرية للنص والخطاب القرآني وعلى المستويات كافة (لفظاً ودلالة ، حذفاً وتوليداً ، تكثيفاً وتوسيعاً) يظهر ذلك جلياً في قوله(١٦)

وما الناس الا ظاعنٌ ومـــودعٌ ... وثاوٍ قريح الجفنِ يبكي لراحلِ

نساقُ من الدنيا الى غيرِ دائمٍ ... ونبكي من الدنيا على غيرِ طائلِ

فما عاجلٌ نرجوهُ الا كـــآجلٍ ... ولا آجلٌ نخشاهُ الا كعاجـــلِ

أن فلسفة الحياة والموت تبدو ظاهرة جلية للجميع ولكن صيغتها في هذه الأبيات تمتلك القوة والقدرة على زرع الزهد في الحياة ونبذ البقاء ، فالدنيا غير دائمة على حال والبكاء عليها أصبح من غير فائدة والعاجل كالآجل والذي نخشاه ونحذره لا بد أن يقع مستقياً ذلك كله من قوله تعالى(١٧) { ما أصابَ من مصيبةٍ في الارضِ ولا في انفسكم إلا في كتابٍ من قبل أن نبرأها إن ذلك على اللهِ يسيرٌ ۞ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحبُ كلَّ مختالٍ فخورٍ} ونراه في موضع آخر قد عمد الى نقل أحاسيس ومشاعر أهل الفقيد من التفكير بمصابهم الأليم الى التفكير في فلسفة الحياة مما يولد في نفوسهم شيئاً من العزاء يساعدهم في تجاوز ما ألمَّ بهم ، والظاهر أن هذه التأملات كان منشؤها ثقافة ابن هانئ الأندلسي وتأثره بمذهب الفلاسفة في الاستدلال العقلي حتى بات هادئاً رزيناً أمام المصيبة يقول (١٨)

الا كلُّ آتٍ قـــريبُ المدى ... وكـــلُّ حـــياةٍ إلى مُـــنتهى

وما غرَّ نفساً سوى نفسِها ... وعُمرُ الفتى من أمـاني الفتى

فأقصرُ في العينِ من لفتةٍ ... وأسرعُ في السمعِ من ذا ولا

فهذه الأبيات تبدو وكأنها ترديد لقوله تعالى (١٩){إن ما توعدونَ لآتٍ وما أنتم بمعجزين}

وقوله تعالى (٢٠) {كلُّ من عليها فانٍ ۞ ويبقى وجه ربكَ ذو الجلالِ والإكرامِ}

إذ يتحدان في المعنى ويختلفان في الصياغة .وفي هذا المستوى تبدو براعة الشاعر و ومقدرته في استجداء كوامن المتلقي بحضوره الذهني في عملية رصد ظواهر الصورة الشعرية وتحليل معالمها وكشف مرجعياتها ذلك حين تختفي صورة قرآنية وراء صورة شعرية جسد ابن هانئ بها موقفاً من المواقف الحياتية أو فكرة أراد تثبيتها والتعبير عنها فتساهم مخيلة المتلقي في الكشف والربط بين الصورة الشعرية والصورة القرآنية باحثاً عن المورد الذي استقى منه الشاعر صورته فهو يعمد الى المزج بين آيتين أو أكثر للوصول الى اقصى حد ممكن في شد التوتر الدلالي لدى القارئ يظهر ذلك جلياً في قوله (٢١)

أنظُر إليه وفي التحريك تسكينُ ... كـــأنما التـقمت عنه الـــتنانينُ

تبـــارك الله ما امضى أسنَّـــتهُ ... كـــأنما كلُّ فكٍ منهُ طاحـــونُ

كـــأن بيتَ سلاحٍ فيه مختزنٌ ... مما أعدّتهُ للـــــرُّسلِ الفراعينُ

كأنما الحملُ المشوي في يـــدهِ ... ذو النون في الماءِ لما عضَهُ النونُ

فـــليسَ ترويـه أمواهُ الفراتِ ولا ... يقوتـهُ فُلكَ نـوحٍ وهـو مشـــــحونُ إذ عمد الى مجموعةٍ من القصص القرآنية ((قصة يونس (ع) وقصة نوح (ع))) موظفاً اياها في هجائه لأكول ، مصوراً حركة فمه في الفتح والإطباق بالتقام التنانين للطعام مشبهاً أسنانه بالطواحين وجوفه ببيت السلاح الذي اعدته الفراعنة للرسل وابتلاعه للطعام كابتلاع الحوت ليونس (ع) وهو في شرهه هذا لن ترويه مياه الفرات ولن تفوته سفينة نوح (ع) وهي مشحونة بالطعام .وفي موضع آخر يدعو للتأمل في الموت مؤكداً على ان الهدى ينبع من القلب وبه يكون التبصر والتدبر دون العين إذ يقول (٢٢)

ولـــــم أرَ كالمرء اللبيب ... يرى ملء عينيه ما لا يرى

وليس النواظرُ إلا القلوب ... وأما العيونُ ففيها العـــمى

ومن ذلك قوله أيضاً (٢٣)

إنا وفي آمالِ انفُسنـــــا ... طولٌ وفي أعمارنا قتـــصرُ

لنرى بأعيُننا مصارعنا ... لوكـــانت الألـــبابُ تعتبرُ

مما دهانا إن حاضرنـــا ... اجفاننا والغائب الفـــــكرُ

لو كان للألباب ممتحنٌ ما عُدَّ منها السمعُ والبصرُ
أيُّ الحـــياةِ ألذُّ عيشتها من بعدِ علمي إنني بـــشرُ
خرست لعمر الله ألسُنُنا لـــما تكلم فوقها القـــدرُ

إذ عمد الى تصوير الطبيعة البشرية وما ستؤول اليه بعد حين من الزمن ، فمن الأمنيات العظام التي يمني المرؤ فيها نفسه الى الموت الحتمي الذي يقف حائلاً بينه وبين ما تصنعه مخيلته من آمال وطموحات معللاً ذلك بالعمى الذي أصاب الفكر دون البصر مستسقياً صورته الشعرية من قوله تعالى (٢٤) { أنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} وقوله تعالى (٢٥) { لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يُبصرون بها ولهم أذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالإنعامِ بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون }وقد يعمد الى خلق جسور دلالية جديدة استناداً الى حدث او قصة قرآنية قاصداً الغاية النفعية التي تقربه من الممدوح فيسرد لنا سرداً وصفيا عن آباء الممدوحين كيف حموا مكة وشعابها ووهادها ورباها من جيش أبرهة الذي أخذ يطوي الليل بالنهار ليصل إليها فشاغلوا عنه الفيل بالطعن المزدوج ، ومنعوه من الوصول إليها قال(٢٦)

حاصـــروا مكّة في صبـــابةٍ عقدوا خـيرَ حُبىً في خيرِ نادِ
فـــتلهم ما إنجابَ عنهُ فجرها من قليبٍ أو مصادٍ أو مـــرادِ
أو شعابٍ ، أو هضابٍ أو ربىً او بطاحٍ أو نجادٍ أو وهـــــادِ
في حـــــريم الله إذ يحـمونـــه بالعوالِ السُّمرِ والبيض الحدادِ
ضـــاربوا إبـــــرهةً من دونهِ بعدما لفَّ بياضها بســـــوادِ
شغلوا الفيلَ عليهِ في الوغـــى بثُوامِ الطعنِ في الخطوِ الفرادِ

فاستلهمت هذه الصورة معطياتها من سورة الفيل ليجعلها خلفيةً لصورتهِ الشعرية مع إيجاد شكل من التمازج بينهما عبر أسلوب التحاور داخل المشهد الشعري .

ثالثاً : المستوى الثالث:: وتتجلى فيه مقدرة ابن هانئ الأندلسي وعمق ثقافته الدينية وعظيم استلهامه لألفاظ القرآن الكريم ومعانيه حتى جعل من قصائده قرآناً خاصاً به يرتل آياته ترتيلاً وإن ما من أحد يحسن قول الشعر كما يحسنه يقول (٢٧)

حتى رأيتُ قصائدي منحولةً والقولَ في أمِّ الكتابِ مقـولا
ولأن بقيتُ لأُ خلينَّ لـعزّها ميدانَ سبقي مُقصراً ومُطيلا
حتى كأني ملهمُ وكـــأنها سورٌ أُرتِّلُ آيَها ترتيـــلا

فقد استطاع بما رزق من موهبة وملكة أدبية من الاتكاء على اسلوب بلاغي آخر معتمدا على تكنيك (الإشارة والتلميح) مؤكدا قوة الآصرة التي تشده الى تراثه الديني وإبداعه الروحي يقول (٢٨)

أرى مدحهُ كالمدحِ لله أنهُ قنوت وتسبيح يحطُّ به الوزرُ

إشارة منه الى قوله تعالى(٢٩) { فسبح بحمدِ ربك وأستغفرهُ إنهُ كانَ غفارا }

وأيضا قوله (٣٠) واصفا المعز الفاطمي

كأنما في كفه للورى مفاتح الآجالِ والأرزاقِ

فقد جعل من المعز الفاطمي سيد الخلق بيده الآجال والارزاق إشارة الى قوله تعالى (٣١)

{ وعندهُ مفاتحُ الغيبِ لا يعلمها إلا هو }

وقوله أيضا (٣٢)

فتربصوا تالله منجزَ وعده قد آنَ للظلماء أن تتكشفا

مستقياً صورته من قوله تعالى(٣٣) { ويستعجلونكَ بالعذابِ ولن يخلف اللهُ وعده }

وقوله (٣٤)

وما خلقت عبثاً أُمةٌ ولا ترك اللهُ قوماً سدى

ففيه إشارة الى قوله تعالى (٣٥){ أيحسب الإنسانُ أن يترك سدًى }

وفي موضع آخر يوظف قصة بني إسرائيل وعذابهم مع فرعون وقارون بكل طغيانهم وجبروتهم ويقلب المعنى – عبر أسلوب التلميح – من ذم في القرآن الكريم الى مدح جوهر الفاطمي قائد المعز في قوله (٣٦)

ولما تغشت جانب الأرض فتنةٌ تشُبُّ لضى الهيجاء الفَحَ الفحا
رمى بك قارون المغاربِ عاتياً وفرعونها مستحييا ومذبِّـــحا

ونستطيع أن نلحظ مدى الثقافة الدينية التي تمتع بها ابن هانئ الأندلسي وكيف استطاع أن يوظف قصة يأجوج ومأجوج - عبر أسلوب التلميح - وكيف أن مخلص القوم استعان بالحديد المذاب ليبني لهم سدا ، لكن المعز الفاطمي استبدل الحديد بالذهب في قوله (٣٧)

يريقُ عليها اللؤلؤ الرَّطبُ ماءهُ ويسبكُ فيها ذائب التبر سابكُ

وقوله أيضا (٣٨)

نزلت ملائكةُ السماءِ بنصرهِ وأطاعه الإصباحُ والإمساءُ

مشيرا إلى ما ورد في القرآن الكريم من نصر الله للمسلمين في معركة الخندق وكيف أمدهم بجنود من الملائكة في قوله تعالى (٣٩) { و أنزلَ جنوداً لم تروها }

كذلك الحال مع المعز الذي نصره الله وأمده بما يعينه في نصره

هوامش المبحث الاول

١- زهرة الآداب وثمر الألباب للقيروان : ١٤٠/١
٢- ينظر أثر القرآن الكريم في الشعر الاندلسي هادي طالب (رسالة ماجستير) : ٩
٣- ينظر الادب الاندلسي للتطور والتجديد د. محمد عبد المنعم الخفاجي : ٤٢٣
٤- الديوان : ١٥٥
٥- سورة العصر آية ١
٦- سورة الفجر آية ١-٣
٧- الديوان : ٥٦
٨- سورة طه آية ٢٥ – ٣١
٩- الديوان : ١٥ – ١٧
١٠- سورة الرحمن آية ٢٤
١١- سورة النازعات آية ٤
١٢- سورة ص آية ٢١ – ٢٥
١٣- الديوان : ٥٢
١٤- سورة ص آية ٣٠ – ٣٣
١٥- الديوان : ٢٣٣
١٦- المصدر نفسه : ٣٠٣
١٧- سورة الحديد آية ٢٢- ٢٣
١٨- الديوان : ٢٧
١٩- سورة الأنعام آية ١٣٤
٢٠- سورة الرحمن آية ٢٦ – ٢٧
٢١- الديوان : ٣٧٦
٢٢- المصدر نفسه : ٣٥
٢٣- المصدر نفسه : ١٦٦
٢٤- سورة الحج آية ٤٦
٢٥- سورة الاعراف آية ١٧٩
٢٦- الديوان : ١٥٦
٢٧- المصدر نفسه : ٩٦
٢٨- المصدر نفسه : ٧٨
٢٩- سورة النصر آية ٣
٣٠- الديوان : ٣٣٠
٣١- سورة الانعام آية ٥٩
٣٢- الديوان : ٢٠٤
٣٣- سورة الحج آية ٤٧
٣٤- الديوان : ٢٥
٣٥- سورة القيامة آية ٣٦
٣٦- الديوان :٧٧
٣٧- المصدر نفسه : ٨١
٣٨- المصدر نفسه : ١٥
٣٩- سورة التوبة آية ٢٦

المبحث الثاني أثر العقيدة الإسماعيلية في شعر ابن هانئ الأندلسي

توطئة

كان ا بن هانئ الأندلسي شاعرا مذهبيا لا يؤمن بالفن فقط وإنما يستخدمه في تدعيم مذهبه العقائدي فقد اتصل بزعماء الدولة الفاطمية بعد هجرته من الأندلس وعمل للدعوة الإسماعيلية التي ورثها من أبيه فكان لسانها الناطق وداعيها ذا الصوت الجهير حتى صار شعره لسان الدعوة الإسماعيلية الناطق يردده في محافلهم ومجالسهم ، واهتموا به وسجلوه دون غيره من الشعراء كونه يحمل كثيرا من عقائد الفاطميين وأفكارهم

وتقديسهم للخلافة والخليفة [١] .ومن هنا كثرت في شعره مصطلحات الاسماعيليين وآرائهم وبدت في نتاجه خطوط مذهبهم وروح دعوتهم واشتمل أسلوبه على كثير من مواطن الحجاج والتعليل ومحاولة الإقناع المنطقي ، وربما لا تخلو قصيدة من قصائده من عشرات الأمثلة على ذلك [٢] .ويؤمن الشيعة الفاطميون الاسماعيليون بمجموعة من المبادئ التي كان صداها حاضرا في شعر ابن هانئ الأندلسي حتى غدا ديوانه يمثل صورة واقعية لتعاليم الإسماعيلية الفلسفية إذ كانت العقيدة الإسماعيلية متأصلة في روحه كونه نهل أصولها وأساسها من والده الذي كان أحد دعاة المذهب الاسماعيلي حتى عدّ شعره الإطار الروحي للدعوة الإسماعيلية [٣] الذي تحرك فيه ابن هانئ تحركا ارتقائيا ، وأن تعاليم هذا المذهب لتبدو جلية في شعره ومن أبرز هذه المبادئ هي :

أولاً : مبدأ الإمامة :يعد هذا المبدأ من أهم تعاليم الدعوة الإسماعيلية وأخطرها والإمام في نظرهم هو "علة المخلوقات وحياة الكل وبه ترتب الخلق والدين وهو موجود غير مفقود لا يدركه زمان ولا يدخل تحت حوادث الأيام " [٤] وبناءً على هذه الفكرة فهم يرون أن إمامة الفاطميين ربانية وطاعتهم فريضة مكتوبة على كل مسلم إذ يتمتعون بفضائل فطرية تجعلهم مبرئين من الذنوب مطهرين من الآثام ولا يقعون في أيّة خطيئة مهما كانت صغيرة لما ينتقل في أصلابهم – حسب اعتقادهم – من نور الهي – ينقي أرواحهم ويخليها من دواعي الشر [٥] يظهر ذلك جلياً في مدح المعز الفاطمي [٦]

معزُّ الهدى والدين والرحمِ التي ... صنائعه في آلهِ وزكـــى الذُخـــرُ
فقد صارت الدنيا إليكم مصيرها ... وصار له الحمد المضاعف والشـكرُ
إمامٌ رأيتُ الدينَ مرتبطـاً بهِ ... فطاعتهُ فوزٌ وعصيانهُ خُســـرُ
أرى مدحَهُ كالمـــدحِ لله إنه ... قُنوتٌ وتسبيحٌ تُحَطُ بهِ الـــوزرُ
هو وارث الدُ نيا ومن خلقت لهُ ... ومن الناس حتى يلتقي القطرُ القطـرُ

فالإمام صنو الإيمان بل يكاد يكون الإيمان نفسه فإذا ما كان الإنسان مطيعا للإمام فهو فائز لا محاله لذلك كان من الواجب على ابن هانئ – حسب مذهبه – أن يجعل طاعة الإمام كطاعة الله ومن ذلك قوله أيضاً[٧]

فكونوا حصيداً خامدين أو ارعووا ... الى ملكٍ في كفّهِ الموتُ والنشرُ
أطـــيعوا إماماً للأئمة فاضلاً ... كما كانت الأعمالُ يفضلها البـرُ
فان تتبعوه فهو مولاكمُ الـــذي ... لهُ برسول الله دونكمُ الفخـــرُ

وفي موضع آخر نجده يحاول التماس العذر لنفسه في وصفه للمعز الفاطمي كونه يمت بصلة الى آل البيت (ع) وينتهي نسبه الى الزهراء عليها السلام [٨]

أبناء فاطم هل لنا في حشرنـــا ... لجأُ سواكم عاصمٌ ومجـارُ
أنتم أحـــــباء الإله وآلـه ... خلفاؤ هُ في أرضهِ الابـرارُ
أهل النبوَّةِ والرسالةِ والهـُدى ... في البينات وسادةٌ اطـــهارُ
والوحـــي والتأويل والتحـــريم ... والتّحليلِ لا خلقٌ اليهِ يُشـارُ
لو تلمسونَ الصخر لأنبجست به ... وتفجَّرت وتدفقت أنهـــارُ

فهو شاعر لم يعرف الى الاعتدال طريقاً ولم تحده حدود مما جعله يكيل صفات الذات الإلهية حتى يصل بممدوحه الى مرحلة الإلوهية مخرجاً إياه عن صفات البشر ليصل درجة قريبة من أصحاب الخوارق لأن الإمام يتسم عند الاسماعيليين بالعصمة ومن هنا كان غلوه منسجماً مع معتقده ، يظهر ذلك في قوله [٩]

لكلِ بني أحمد فضلـــهُ ... ولكـــنك الواحد المجتبى
ليعرفك من أنتَ منجاتُهُ ... إذا ما أتقى الله حقَ التُقى

وقوله أيضاً [١٠]

تسعى بنور الله بين عـــبادهِ ... لتُضئَ برهـانا لهم تلوحـــا
وجدَ العيانُ سناكَ تحقيقاً ولم ... تُحطِ الظنون بكنههِ تصريحا

ولم يكتف الشاعر ما أورد وقدم من صفات في حق الخليفة الفاطمي الذي يمثل عنده رتبة الإمامة بل وصل به الأمر الى أن يجعله صاحب الشفاعة رافعاً أياه الى مرتبة الرسول (ص) حين يقول [١١]

هذا الشفيعُ لأمةٍ يأتي بـــها ... وجـدُودُه لجدها شفعـــاءُ
هذا أمينُ اللهِ بين عبـــادهِ ... وبلادهِ إن عُدّت الأمنـــاءُ

فعليهِ من سيما النبي دلالـــةٌ وعليهِ من نورِ الاله بهـــاءُ
للناسِ اجتماعٌ على تفضيله حتى استوى اللؤماءُ والكُرماءُ

ثانياً : مبدأ المثل والممثول :ويقوم هذا المبدأ -عند الاسماعيليين- على حقيقة مفادها إن للقرآن ظاهراً ووراء ظاهره باطن لا يعلمه الا أئمتهم خصّوا به دون غيرهم من البشر، مستدلين على ذلك بقوله تعالى(١٢)
{ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث }فظاهر القرآن مثل وباطنه ممثول ، وجسم الإنسان مثل وباطنه ممثول مما دعاهم إلى الغلو والاتساع في تأويل آيات القرآن الكريم (١٣)
يظهر ذلك جلياً في قول ابن هانئ مادحاً المعز الفاطمي (١٤)

وحسبي مما كان أو هو كـــائنٌ دليلانِ عـــلمٌ بالاله وتـجريبُ
ولم تخرق سجف الغيوبِ هواجس ولكنهُ من محارب الله مـــحروبُ
وأعلم ان اللهَ مـــــنجزَ وعدهِ فلا القول مأفوكٌ ولا الوعدُ مكذوبُ
وأنتَ معدٌّ وارثَ الأرضَ كلهـا فقد حُمَ مقدورٌ وقد خُطَّ مـــكتوبُ
ولله علمٌ ليس يحجب دونكـــم ولكنهُ عن سائر الناس مـــحجوبُ
وذكركَ تقديسٌ وأنتَ دلالـــةٌ وحبكَ تصديقٌ وبغضكَ تـــكذيبُ
ألا أنما الدنيا رضـــاكَ لعاقـــلٍ وألا فـــأن العيش هَمٌّ وتعـــذيبُ
وأن طالَ عمرٌ في نعيمٍ وغبطـــةٍ فـــــما هو الا من يميلك موهوبُ

وهكذا يستفيض في منح الصفات الإلهية للممدوح دون ايَّما تحرج إذ يقول (١٥)

مـــا شئت لا ما شاءت الأقدارُ فأحكم فأنتَ الواحدُ القهارُ
وكـــأنما أنت النبيُّ مـــحمدٌ وكأنما أنصارُكَ الأنصارُ
هذا الذي ترجى شفاعتهُ غداً وتخمد أن تراهُ النـــــارُ

فقد عبرت هذه الأبيات عن وجهة نظر ابن هانئ الأندلسي للخليفة الفاطمي وإن كان قد تجاوز حدَّ المعقول في وصفه وهي ما تمليه عليه عقيدتهُ الفاطمية التي يرى أصحابها أن الأئمة هم مبرؤون من المادة نوراً خالصاً وهم يمثلون باطن الوجود معتمدين في جُلِّ أفكارهم على تأويل الآيات القرآنية ، وبناءاً على ذلك صارت المشيئة مرتبطة بالأمام لأن حكم الأشياء بيده وهو الواحد القهار ومن ذلك قوله أيضاً (١٦)

والريحُ تبعثُ أنفاسها معطرةً مثل العبير بماء الوردِ يختلقُ
كأنما هي أنفاسُ المُعزِّ مرت لا شبهةٌ للندى فيها ولا غـــلطُ
تالله لو كانت الانواءُ تشبهـــهُ ما مرَّ بئسٌ على الدنيا ولا قنطُ

وانطلاقا من هذه النظرية نراهُ لا يسبغ على ممدوحه من صفات الله تعالى وحدها بل يجعل ذات الخليفة نفس ذات الله فهو وجه الإله إذ يقول (١٧)

وجهٌ بجوهرِ ماء العرشِ متصـــلٌ عرقٌ بمحضِ صريح المجدِ مرتبطٌ
يا أفضل الناس من عربٍ ومن عجمٍ وآل أحمد إن شبـــوا وإن شمطـــوا

وهذه المعتقدات التي غالى ابن هانئ في إظهارها في شعره نابعة من تمسكه بأصول العقيدة الفاطمية وتشربه لمبادئها التي لا تتوانى في إضفاء الصفات الإلهية للخلفاء الفاطميين عبر الإغراق في التأويل للآيات القرآنية في مدح خلفائهم ، كقول ابن هانئ الأندلسي مادحاً يحيى أخا الخليفة المعز الفاطمي (١٨)

لـــكل قومٍ سيدٌ مـــاجـــدٌ لكنَّ يحيى سيدُ الخلـــقِ
يصرحُ المـجدُ إذا ما بـــدا ويسجدُ الباطلُ للحـــقِّ
فأن يكن سيفَ إمـــام الهدى قهرَ إمامُ الفتقِ والرَّتقِ
كأنما في كـفهِ للـــــورى مفاتح الآجـــالِ والارزاقِ
الحوض حوض الله في كفهِ يطفح من ملءٍ ومن فـهقِ

ويتصاعد غلوه ويتضح بصورة جلية في قصيدته التي قالها في مدح المعز الفاطمي حين استخدم لغة القرآن الكريم وأعار صفات اختصت بها الذات الإلهية دون أن تكون لغيره تعالى مستقياً معانيه من نظرية المثل والممثول التي يؤمن بها إذ يقول (١٩)

لكَ الدهرُ والايامُ تجري صـروفها بما شئتَ من حتفٍ ورزقٍ مقسم
وأنتَ بدأتَ الصفحة عن كلِ مذنبٍ وأنتَ سننتَ العفوَ عن كلِّ مجرم

رأيتكَ من ترزقهُ يُرزق من الورى ... دراكاً ومن تحرم من الناسِ يحرم
ومن لم تأيد ملكه يهوِ عرشهُ ... ومن لم تثبت عزهُ يتهدم
وأشهدُ إن الدين أنت مناره ... وعروتهُ الوثقى التي لم تفصَّم
ولله سيفٌ ليسَ يكلم حدُّهُ ... على أنه ان لم تقلَّدهُ يكهم
وللوحي برهانٌ ألذُّ خصومهُ ... ولكنهُ إن لم تؤيدهُ يُخصَم
وللدهرِ سجلٌ من حياةٍ ومن ردى ... ولكنهُ من بطن كفّيكَ ينهمي

فقد عمد على إضفاء الصفات الإلهية للممدوح مما يكفي لجعل الناس يحكمون بتكفيره فهو – المعز الفاطمي – يرزق ويصفح ويعفو ويؤيد من يشاء من البشر ، حتى إن الوحي إن لم يؤيده المعز يغلب بالخصومة .ومدائح ابن هانئ الأندلسي للمعز الفاطمي تنحى في معظمها منحاً باطنياً ولا تتقيد بالشكليات استلهمها من أصول عقيدته الفاطمية ووظفها توظيفاً ذا قيمٍ فنية جعلت من الممدوح يبلغ الصفات الإلهية عاكساً جوهر تلك العقيدة كقوله (٢٠)

وعلمت من مكنون علم الله ما ... لم يؤتَ جبريلاً وميكائيلا
لله فيك سريرةٌ لو أعلنت ... أحيا بذكركَ قاتلٌ مقتولا
لو كان أعطى الخلقَ ما أوتيتهُ ... لم يخلق التشبيهَ والتمثيلا
لولا حجابٌ دون علمكَ حاجزٌ ... وجدوا الى علم الغيوبِ سبيلا
لو لم تكن سبب النجاة لأهلها ... لم يغنِ ايمان العبادِ فتيلا
لو لم تعرفنا بذات نفوسنا ... كانت لدينا عالماً مجهولا

فعلم المعز كما يقول ابن هانئ هو علم رباني لأن الأئمة هم ورثة علم رسول الله (ص) وبما إن علم الرسول (صلى الله عليه واله) رباني فعلمهم كذلك .

ثالثاً : نظرية الدور :وهو المبدأ الذي يفصل العقيدة الاسماعيلية عن الشريعة الإسلامية فصلا تاما ، إذ يزعمون إن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار كل دور يتكون من سبعة أئمة والسابع هو الامام الناطق الممثل للعقل الكلي الفعال الذي انتقلت إليه قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية التي يمثلها الأئمة الستة في الدور كما تصدر جميع المخلوقات عنه (٢١) .لقد كان لهذه النظرية حضور واسع في شعر ابن هانئ الأندلسي ولما كان المعز الفاطمي نهاية السبعة الثانية من ألائمة الفاطميين – حسب اعتقادهم – فأنه كان يتمثل فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء (٢٢) فيتمثل فيه نور نوح (ع) (٢٣)

لو كنتَ نوحاً منذراً في قومهِ ... ما زادهم بدعائهِ تضليلا

ويتمثل فيه قبس موسى (ع) وشعلته وهداه (٢٤)

من شعلة القبس التي عرضت على ... موسى وقد حارت به الظلماءُ

ويتمثل فيه نور المسيح (ع) الذي كان يبرئ الاكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله تعالى (٢٥)

أقسمت لولا أن دعيت خليفةً ... لدُعيتَ من بعد المسيح مسيحا

ويتمثل فيه نور الرسول الخاتم (ص) المشاهد في كل نور بملكوت السموات (٢٦)

وكأنما أنت النبي محمدٌ ... وكأنما أنصارك الأنصارُ

ويبلغ به الغلو حتى لا يكتفي بحلول أرواح الأنبياء في المعز الفاطمي بل يجعل الله يحل فيه (٢٧)

حلَّ برقادهِ المسيح ... حلَّ بها آدمٌ ونوحُ
حلَّ بها اللهُ ذو المعالي ... وكلُّ شيءٍ سواهُ ريحُ

ويعتقد الفاطميين أن النور الإلهي يتجلى في كل دور من الأدوار حتى يبلغ كماله في الإمام الناطق الحامل للرسالة النورانية (٢٨) . وقد استوحى ابن هانئ الأندلسي هذه الفكرة موظفاً إياها في مدحه للمعز الفاطمي حتى جعله (روح هدى وجسم نور) (٢٩)

وروحِ هدى في جسمِ نورٍ يمدُّهُ ... شعاعٌ من الأعلى الذي لم يجسمِ
ومتصلٍ بين الاله وبينه ... ممر من الاسباب لم يتصرَّمِ
إذا أنتَ لم تعلم حقيقةَ فضلهِ ... فسائل به الوحي المنزَّلِ تعلمِ
على كلِ خطٍ من أسرةِ وجههِ ... دليلٌ لعينِ الناظرِ المُتوسّمِ
فأقسمُ لو يأخذُ الناسُ وصفهُ ... عن الله لم يعقل ولم يتوهَّم
ألا أنما الأقدارُ طوعُ بنانهِ ... فحاربهُ تحرب أو تسالمهُ تسلم

فجسد المعز لم يعد مادة ترابية حتى صار مرتبطاً بالذات الإلهية .

وقد انتقل الشاعر نقلة واسعة إذ جعل المعز نوراً خالصاً وكأنما ليس فيه شيء من المادة ولا من الطبيعة البشرية ويصرح بذلك إذ يقول إن العيان والحس إنما يشهدان سناه وضياءه أما هو فكذات الإلهية لا تحيط

الظنون بكنهه وحقيقته (٣٠)

تسعى ينور الله بين عباده ... لتضيء برهاناً لهم وتلوحا
وجد العيان سناك تحقيقاً ولم ... تحط الظنون بكنهه تصريحا
صورتَ من ملكوت ربكَ صورةً ... وأمدها علماً فكنت الرُّوحا
شهدت بمفخركَ السماوات العلى ... وتنزلَ القرآنُ فيكَ مديحا
تدعوهُ منتقماً عزيزاً قادراً ... غفارُ موبقةِ الذنوبِ صفوحا
أوتيتَ فضل خلافةٍ كنبوةٍ ... ونجيَّ الهامِ كوحيٍ يوحى

وقوله أيضا (٣١)

أبني النبوةِ هل نبادرُ غايةً ... ونقولُ فيكم خيرَ ما قد قيلا
أن الخبيرَ بكم أجدَّ بخلقكم ... غيباً فجرد فيكم التنزيلا
آتاكم القدسَ الذي لم يؤتهِ ... بشراً وأنفذَ فيكم التفضيلا
إنا استلمنا ركنكم ودنوتمُ ... حتى استلمتمُ عرشهُ المحمولا
فوصلتُمُ ما بيننا وأمدكم ... بُرهانهُ سبباً به موصولا
ما عذركم أن لا تطيبَ فروعكم ... ولقد رسختم في السماءِ أصولا
أعطتكم شُمُّ الانوفِ مقادةً ... وركبتم ظهر الزمانِ ذلولا

وبحسب هذه النظرية فأن الرسول (ص) هو عقل كامل وأن علياً (ع) وصيهِ نفساً كلياً ومما زعموه أن نفوس الأئمة الستة قبل العقل الناطق تعود بعد الوفاة الى عالم العقول وتصبح مثله عقولاً كلية مدبرة للكون (٣٢)

وقد تجسدت هذه الفكرة في قول ابن هانئ الأندلسي مادحاً المعز الفاطمي (٣٣)

هذا ضميرُ النشأةِ الاولى التي ... بدأ الإله وغيبها المكنونُ
من أجل هذا قدر المقدورُ في ... أُمِّ الكتابِ وكوّنَ التكوينُ
وبذا تلقى آدمٌ من ربهِ ... عفواً وفاءَ ليونس اليقطينُ
حاشى لما حُمِّلت تحمل مثله ... ارضٌ ولكن السماءَ تعينُ
لو يلتقي الطوفانُ قبل وجوده ... لم ينجِ نوحاً فلكهُ المشحونُ
ولأنتَ أفضل ما تشير بجاههِ ... تحت المظلةِ بالسلامِ يمينُ

هوامش المبحث الثاني

١- ينظر الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة د . أحمد هيكل : ٣٢١
٢- ينظر تاريخ الأدب العربي – عصر الدول والامارات / مصر د. شوقي ضيف ٢٤٤
٣- ينظر ملامح الشعر الأندلسي د. عمر الدقاق : ٨٨
٤- أربع رسائل في الاسماعيلية عارف تامر : ٥٥
٥- ينظر المصدر نفسه
٦- الديوان : ١٣٤
٧- المصدر نفسه : ٧٨
٨- المصدر نفسه : ١٥٠
٩- المصدر نفسه : ٢٥
١٠- المصدر نفسه : ٢٦
١١- المصدر نفسه : ١٣
١٢- سورة يوسف آية ٦
١٣- تاريخ الادب العربي – عصر الدول والامارات / مصر د. شوقي ضيف : ٢٤٥
١٤- الديوان : ٣٩
١٥- المصدر نفسه : ٤٦
١٦- المصدر نفسه : ١٥٨
١٧- المصدر نفسه : ٥٤
١٨- المصدر نفسه : ٢٣٠
١٩- المصدر نفسه : ٣١٧
٢٠- المصدر نفسه : ٢٧٣
٢١- ينظر ابن هانئ الأندلسي عارف تامر : ٥٩
٢٢- ينظر المصدر نفسه : ٥٩
٢٣- الديوان : ٢٧٣
٢٤- المصدر نفسه : ٥
٢٥- المصدر نفسه : ١٧
٢٦- المصدر نفسه : ١٤٦
٢٧- المصدر نفسه : ٧١
٢٨- ينظر تاريخ الادب العربي – عصر الدول والامارات / مصر د. شوقي ضيف : ٢٤٦

٢٩- الديوان : ٣١٥
٣٠- المصدر نفسه : ٣٠٢
٣١- المصدر نفسه : ٣١٣
٣٢- ينظر تاريخ الادب العربي – عصر الدول والامارات / مصر د. شوقي ضيف : ٢٤٦
٣٣- الديوان : ٣٥٧

الخاتمة :

بعد ان شارف البحث على نهايته كان من الضروري ان نعرض خلاصة له ونكشف عن اهم نتائجه :

١- ابن هانئ الأندلسي شاعر مكثر مجيد دلَّ شعره على انه كان ملماً بعلوم عدة كعلم اللغة والفقه والكلام مما دفع معظم النقاد ان يجعلوه في مقدمة شعراء المغرب ولقبوه بمتنبي الغرب .

٢- كان يعمد في شعره الى غريب اللغة وقعقعة الفاظها ويتكلف المبالغة ويغلو حتى ان من نقد شعره عاب عليه اهتمامه بالألفاظ دون الأفكار واتهموه بمحاولة إبراز قدرته اللغوية في النظم .

٣- إن الثقافة الإسلامية ومصدرها الرئيس القرآن الكريم قد ادى دورا مهما في حياة الشاعر وظهر تأثيرها واضحا في شعره فانطبعت آثاره على معظم أغراضه الفنية وتسربت ألفاظه وتعابيره الى خلايا شعره .

٤- تعامل ابن هانئ الأندلسي مع النصوص القرآنية تعاملا ذكيا ظهر على مستويات ثلاث (تصريحا او تلميحا او إشارة) دالة على حفظه للقرآن الكريم وتشربه لمعانيه وتمرس فكره بهديه وتأثره بنصوصه وأفكاره تأثرا قويا .

٥- إن من بواعث حضور المعالم القرآنية وأثرها الكبير في شعره لا تتمثل بالغاية الدينية فحسب بل قد يلجئ اليها لاعتبارات ذاتية وكوامن نفسية تتمثل في سببين أساسين احدهما إضفاء القداسة لعقيدته الاسماعيلية وتكريس شرعيتها في أذهان الناس والثاني المنفعة في القربى من الممدوح – الخليفة – وانتهاز المواقف التي تقربه اليه .

٦- معظم قصائده مملوءة بالألفاظ والمدارك الفاطمية والمبالغة بالمديح والرثاء ومما لا شك فيه انه كان يأتي بهذه المبالغات ارضاءً للممدوحين واستكثاراً لعطاياهم وجوائزهم .

٧- اشتمل شعره على النزعة السياسية والعقيدة المذهبية متعانقتان في اكثره حتى غدا شعره مرآة للعقيدة الاسماعيلية وتعاليمها وعدَّ ديوانه سجلاً لمصطلحاتهم وآرائهم .

٨- كان ابن هانئ الأندلسي شاعرا عقائديا يتفجر شعره بعاطفة فوارة وايمان قوي لا يعرف الاعتدال ولا الحدود وبخاصة في مدائحه للإمام المعز الفاطمي فهو يضفي على ممدوحه من الصفات ما يكاد يخرجه عن صفات البشر ويجعله أقرب الى الإلوهية

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم
٢- ابن هانئ الأندلسي عارف تامر ، بيروت ١٩٦١
٣- اثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي خلال عصري دول الطوائف ودولة المرابطين ٤٢٢ هـ - ٥٤٢ هـ هادي طالب محسن (رسالة ماجستير) كلية التربية / جامعة بابل ٢٠٠٣ .
٤- الأدب الأندلسي التطور والتجديد د. محمد عبد المنعم الخفاجي ، دار الجيل بيروت د.ت
٥- الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة د. أحمد هيكل ، دار المعارف القاهرة ط ١٣ ، ٢٠٠٢
٦- اربع رسائل في الاسماعيلية عارف تامر ، بيروت ١٩٦٣
٧- تاريخ الأدب العربي الى آخر عصر ملوك الطوائف د. عمر فروخ ، دار العلم للملايين ط ٢ ، ١٩٨٤
٨- تاريخ الأدب العربي – عصر الدول والإمارات / مصر د. شوقي ضيف ، دار المعارف مصر ١٩٧٩
٩- ديوان ابن هانئ الأندلسي دار صادر بيروت د.ت
١٠- زهرة الآداب وثمر الألباب القيرواني ابي اسحاق ابراهيم بن علي (ت ٤٥٣ هـ) تح محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ بيروت ١٩٧٢
١١- شعراء الأندلسي د. محمد العريس ، دار اليوسف بيروت / لبنان ط١ ، ٢٠٠٥ م
١٢- معجم الأدباء الحموي ياقوت بن عبد الله طبعة أخيرة منقحة طبع دار المأمون د.ت
١٣- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي ، القاهرة ١٩٥٣ م
١٤- ملامح الشعر الأندلسي د. عمر الدقاق منشورات دار الشروق ، بيروت ١٩٧٤ م
١٥- موسوعة شعراء الأندلس عبد الحكيم الوائلي ، عمان دار اسامة ط ٣ ، ٢٠٠٩ م
١٦- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المقري ابو العباس احمد بن محمد تح د. احسان عباس دار صادر بيروت ١٩٦٨ م
١٧- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ابن خلكان احمد بن محمد بن ابي بكر تح د . احسان عباس دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٨ م